قسم علم الاجتماع / السنة الثالثة

مقرر نظريات اجتماعية ف٢ / د/ عدنان مسلم

"النّظريّة التّباديليّة الاجتماعيّة"

أولاً- تعريف النّظريّة التّباديليّة:

هي "نظريّة سوسيولوجيّة مُعاصرة تبلّورت في إطار النّزعة الوضعيّة، تقول بالتّبادل وبأنّ النّشاط الاجتماعيّ هو أساس لكلّ العلاقات والعمليّات الاجتماعيّة".

ثانياً- جذور النّظريّة التّباديليّة ومصادرها المعرفيّة:

ترجع الجذور الفكريّة لهذه النّظريّة إلى آراء بعض الفلاسفة والعلماء الّذين اهتموا بعمليّة التّبادل (الأخذ والعطاء) منذ القدم.

فقد شغلت هذه العمليّة اهتمام بعض فلاسفة اليونان من أمثال أرسطو، والفيلسوفان الأخلاقيّان البريطانيّان آدم فيرغسون وآدم سميث في القرن الثّامن عشر.

كما تأثرت نظريّة التّبادل في نشأتها بثلاثة مصادر هامة هي:

أ) <u>الاقتصاد الكلاسيكيّ:</u>

استفادت نظريّة التّبادل الاجتماعيّ من آراء بعض علماء الاقتصاد؛ حيث كان مفهوم التّبادل في الاقتصاد الكلاسيكيّ يشير إلى التّبادل المادّيّ فقط، بينما ينظر أصحاب نظريّة التّبادل الاجتماعيّ إلى مفهوم التّبادل على أنّه يعني كلًّ من التّبادل المادّيّ والتّبادل الرّمزيّ أيّ (غير المادّيّ أو المعنويّ).

ب) <u>الأنثرويولوجيا الوظيفيّة:</u>

حيث تأثرت هذه النّظريّة ببعض الدّراسات الأنثروبولوجيّة الّتي أُجريت في بعض المجتمعات البدائيّة، والّتي قام بها بعض علماء الأنثروبولوجيا الوظيفيّة من أمثال جيمس فريزر، ومالينوفسكي، ومارسيل موس، وكلاود ليفي شتراوس.

ت) <u>علم النّفس السّلوكيّ:</u>

تأثرت هذه النّظريّة أيضاً بآراء بعض علماء النّفس السّلوكيّين، من أمثال سكنر الّذي نشر بعض الدّراسات عن السّلوك الاجتماعيّ في كتابه (سلوك الكائنات العضويّة)، والّتي كان لها تأثير كبير في نشأة نظريّة التّبادل الاجتماعيّ.

ثالثاً- الملامح الأساسيّة للنّظريّة التّبادليّة:

ترى هذه النّظريّة أنّ الإنسان يتصرف بشكل منطقيّ وعقلانيّ، فكلّ إنسان يضع أمامه مجموعة من الأهداف ويحدّد لنفسه أكثر الوسائل كفاءةً لبلوغ هذه الأهداف، ويضع الإنسان غيره من أعضاء المجتمع في اعتباره أثناء سعيه لتحقيق أهدافه؛ حيث إنّ هؤلاء الأعضاء يؤثّرون أو حتّى يتحكمون في عمليّة سعي الإنسان لتحقيق أهدافه.

إضافةً إلى ذلك، فإنّ أصحاب هذه النّظريّة يرون أنّ الحقيقة كامنة في الفرد لا في المجتمع. وعلى الرّغم من أنّ الفرد يمثّل نقطة البداية في نظريّة التّبادل، إلّا أنّ النّظريّة لا تستمر في تركيزها على الفرد بل تنتقل إلى محاولة فهم طبيعة الجماعات.

وتقوم هذه النّظريّة على أساس أنّ الأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض نظراً لأنّهم يحصلون عن طريق هذا التّفاعل على بعض المكافآت الاجتماعيّة؛ فالأفراد يستمرون في علاقاتهم الاجتماعيّة طالما أنّ هذه العلاقات تحقّق لهم بعض الفائدة الّتي تفوق التّكلفة الّتي تترتّب عليها.

رابعاً- المفاهيم الأساسيّة للنّظريّة التّبادليّة:

أ) **التّكلفة:** وهي الجهد المبذول، بالإضافة للاعتبارات والعوامل السّلبيّة كالتّعب والإرهاق.

ب) **المكافأة:** وهي النّتائج المرغوبة.

ت) **الكسب:** وهو المعادلة الّتي يعيشها الفرد بين التّكلفة والمكافأة.

ث) **المتتاليّة السّلوكيّة:** وهي عدد من الأفعال اللّفظيّة والحركيّة بشكل متتالٍ.

ج) **الذّخيرة السّلوكيّة:** وهي كلّ المتتاليّات السّلوكيّة.

خامساً- القضايّا الرّئيسيّة للنّظريّة التّبادليّة:

أ) يتمّ التّبادل على أساس حساب التّكلفة والعائد؛ فيتجنب الفرد السّلوك الّذي لا يعود عليه بالفائدة.

ب) السّلوك البشريّ يتمّ من خلال المقارنة بين البدائل المختلفة على أساس مبدأ التّكلفة والعائد.

ت) التّبادل لا يقتصر على الجانب الاقتصاديّ، وإنّما يرتبط بجوانب نفسيّة واجتماعيّة.

سادساً- طرق البحث في نظرّيّة التّبادل:

هناك ثلاثة طرق بحث لهذه النّظريّة، وهي:

أ) **الملاحظة المباشرة،** من خلال مراقبة سلوك أعضاء عمليّة التّبادل الاجتماعيّ بشكل مباشر.

ب) **المختبرات النّفسيّة،** عبر رصد سلوك أعضاء الجماعة التّجريبيّة في المختبر.

ت) **ملاحظة سلوك طيور الحمام،** قام بها "جورج هومنز" حيث بدأ بتقديم حبوب الطّعام كمحفّز للسّلوك العريزيّ لها من أجل معرفة رغبتها في الطّعام (كمكافأة) وعلاقة ذلك باندفاعها في ممارسة سلوك آخر، ومعاقبتها بوساطة حرمانها من تقديم هذه الحبوب عند عدم استجابتها لبعض متطلبات تجربته.

سابعاً- أهم روّاد النّظرية التّبادلية:

أ- بعض منظريّ علم الاجتماع:

١) جورج هومنز (١٩٨٩-١٩١٠) G.Homans

يبدأ التّفاعل الاجتماعيّ عند عالم الاجتماع هومنز من تفاعل الأفراد التّقابليّ *(Face to face)* عاكساً الأوجه النّفسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لتكون قاعدةً لعمليّة التبادل فيما بعد بين المتبادلين. ويرى هومنز أنّه كلّما زاد الفرد من نشاطاته الاجتماعيّة داخل المجتمع زادت مكافآته الاجتماعيّة.

١-١ وضع هومنز أسساً وقواعد للنّظريّة التّبادليّة، وتتمثّل بالآتي:

١-١-١ ما هو مكلف لفرد ما قد لا يكون كذلك بالنّسبة للفرد الآخر المشترك معه في علاقة تبادليّة.

١-١-٢ ما هو غير مكلف لفرد ما قد لا يكون كذلك بالنّسبة للفرد الآخر المشترك معه في علاقة تبادليّة.

١-١-٣ ما هو نافع لفرد ما قد لا يكون كذلك بالنّسبة للفرد الآخر المشترك معه في علاقة تبادليّة.

١-١-٤ ما هو غير نافع لفرد ما قد لا يكون كذلك بالنّسبة للفرد الآخر المشترك معه في علاقة تبادليّة.

١-١-٥ قد يكون النّشاط المتبادل ذي تكلفة ومنفعة عاليتين بالنّسبة لفرد ما، بينما يكون أقلّ من ذلك بالنّسبة لفرد آخر مشترك معه في علاقة تبادليّة، والعكس بالعكس.

١-١-٦ قد يكون النّشاط المتبادل ذي تكلفة بسيطة إنّما منفعته كبيرة بالنّسبة لفرد ما، بينما يكون عكس ذلك بالنّسبة لفرد آخر مشترك معه في علاقة تبادليّة، والعكس بالعكس.

١-٢ كما طرح هومنز بعض حالات العلاقة التّبادليّة، وهي كالآتي:

١-٢-١ أن يقدِّم الفرد مكافأة من أجل الحصول على مكافأة بديلة لهما من قبل الطّرف الآخر.

١-٢-٢ إذا قام بسلوكٍ عدائيٍّ تجاه شخص ما، فإنّه يحصل على مكافأة لقاء ذلك من قبل الطّرف الآخر المشترك معه في علاقة تبادليّة.

١-٢-٣ إذا قدّم الفرد مكافأة لشخص ما، فإنّه يحصل على سلوكٍ عدائيٍّ من قبل الطّرف الآخر المشترك معه في علاقة تبادليّة.

١-٢-٤ إذا قام فرد بسلوكٍ عدائيٍّ لشخص ما، فإنّه يحصل على سلوكٍ عدائيٍّ بالمثل.

١-٣ فضلاً عن ذلك فقد بيّن هومنز الظّروف الّتي تخضع لها العلاقة التّبادليّة، وهي كالآتي:

١-٣-١ كمّيّة المساعدة المقدَّمة خلال فترة زمنيّة محدّدة.

١-٣-٢ كمّيّة النّشاطات البديلة المقدَّمة.

١-٣-٣ درجة القبول الاجتماعيّ.

١-٣-٤ قيمة النّشاطات البديلة المستلمة.

وأضاف هومنز أنّ محفزات السّلوك الإنسانيّ هي درجة، وقيمة، وكمّيّة المكافأة والعقوبة الّتي سيحصل عليها الفرد لقاء قيامه بالسّلوك أو عدم قيامه بذلك، إذ كلما زادت قيمة المكافأة في تقييم الفرد زاد من نشاطه من أجل الحصول على المكافأة، والعكس صحيح.

٢) بيتر بلاو (1918-2002) Peter Blau

يرى عالم الاجتماع بيتر بلاو أنّ الدّافع الرّئيسي للفرد في تفاعله وعلاقته مع الآخر هو التّبادل المعنويّ الّذي يتمّ من خلال التّعامل اليوميّ بين الأفراد في الحياة الاجتماعيّة.

٢-١ ميّز بلاو بين نوعين من المكافآت، وهي:

٢-١-١ مكافآت فعليّة أو (جوهريّة) مثل الحبّ، والإعجاب.

٢-١-٢ مكافآت عرضيّة أو (خارجيّة) مثل النّقود.

٢-٢ وضع بلاو عدداً من القضايا لنظريّة التّبادل الاجتماعيّ، وهي كالآتي:

٢-٢-١ قضية مبنيّة على أسس عقلانيّة.

٢-٢-٢ قضية مبنيّة على أسس تبادليّة.

٢-٢-٣ قضية مبنيّة على أسس قانونيّة.

٢-٢-٤ قضية مبنيّة على أسس المنفعة الجديّة.

٢-٢-٥ قضية مبنيّة على أسس غير مُتوازِنة.

٢-٣ وأفضى بلاو إلى أربعة أنواع من المكافآت بشكل عامّ، هي:

٢-٣-١ النّقود.

٢-٣-٢ القبول الاجتماعيّ.

٢-٣-٣ الاعتبار الاجتماعيّ أو (الاحترام الاجتماعيّ).

٤-٣-٢ التّذمر والتّشكّي.

كما تحدّث بلاو عن مفهوم **التّمأسس** الّذي يُمثّل "مجموعة معايير اجتماعيّة تعمل على ربط الأفراد ببنائها، وتنظّم علاقاتهم المتبادلة، وتنشّط عمليات التّبادل لتكون منسجمة مع القواعد القانونيّة المانعة والسّامحة لتكوّن شبكة من العلائق المتبادلة في تفاعلاتها، ومكافأتها، وتوقعاتها".

٣) ريتشارد امرسون (1926-1982) R.Emerson

عالم اجتماع ومُنظِّر أميركيّ حديث ينتمي إلى الاتّجاه التّبادليّ، قدَّم إضافات إلى النّظريّة التّبادليّة تكمِّل ما جاء به جورج هومنز وبيتر بلاو لكنه لم يبدأ في بناء نظريّته من ملاحظات اجتماعيّة أو من تأثّره بفلسفة اجتماعيّةٍ معينة أو من نقده لنظريّات غير تبادليّة، بل اعتمد على علم النّفس الاجتماعيّ، ووضع مفاهيم، وانطلق منها لتوضيح أسس العلاقة التّبادلية بين فردين أو أكثر.

١-١ أهم هذه المفاهيم هي:

١-١-٣ الفاعل

٢-١-٣ التّعزيز

٣-١-٣ السّلوكيّات

٤-١-٣ التّبادل

٥-١-٣ القيمة

٦-١-٣ البدائل

٧-١-٣ الكلفة

٨-١-٣ علاقة تبادليّة

٩-١-٣ المصادر

٢-٣ وكان تحليله للتّبادل المعنويّ كالآتي:

١-٢-٣ معدّل الاحترام المتبادل بينهما.

٢-٢-٣ أسلوب تقديم واستلام الاحترام بينهما.

٣-٢-٣ حركيّة علاقتهما بعد التّبادل.

٣-٢-٤ ما هو هدف المتبادلين بعد التبادل؟

٣-٣ وأخيراً التفت امرسون إلى وحدة التّحليل فميّز بين نوعين منها، وهي:

٣-٣-١ مصادر تبادليّة متباينة، مثل تبادل سلعة بنقود.

٣-٣-٢ مصدر تبادليّ واحد، كتبادل إعجاب بإعجاب.

ب- <u>بعض منظريّ الانثروبولوجيا:</u>

١) <u>جيمس فريزر (1854-1941) James Frazer</u>

أوضح الأنثروبولوجيّ جيمس فريزر في كتابه (الطّرائق الشّعبويّة في العهد القديم) عادات الزّواج والنّظام القرابيّ في المجتمعات البدائيّة. وفي دراسته عن نظام الزّواج في مجتمع "ابورجنالس" في استراليا أوضح نظام الزّواج بين أبناء العمّ، واستخدم فريزر التّفاسير الاقتصاديّة المبنيّة على النّفعيّة في توضيح هذا الزّواج في ذلك المجتمع، واستنتج فريزر من دراسته لهذا المجتمع أنّ عمليّة تبادل النّساء من أجل الزّواج بين الأقارب يؤدّي إلى المحافظة على نفوذ وقوة العائلة أو القبيلة ضمن إطارها، وبالتّالي المحافظة على تباين درجات النفوذ الاجتماعي بين العوائل.

٢) <u>برونيسلو مالينوفسكي (1884-1942) B.Malinowski</u>

انصبّ اهتمام مالينوفسكي على دراسة ظاهرة التّبادل الرّمزيّ في حلقة الكولا في مجتمع التّروبرياند، وهذه الحلقة عبارة عن مجموعة من الأفراد يقومون بتبادل العلاقات الاجتماعيّة من خلال تبادل السّلع البسيطة فيما بينهم، وهي القلائد والأساور.

استخلص مالينوفسكي في دراسته ما يلي:

٢-١ تعني هذه العمليّة التّبادليّة إشباع الحاجات الاجتماعيّة الأساسيّة وبناء علاقات اجتماعية.

٢-٢ تقوم هذه العمليّة التّبادليّة على العامل الاجتماعيّ والنّفسيّ، وليس الاقتصاديّ.

٢-٣ تؤدّي هذه العمليّة إلى التّماسك والتّكامل الاجتماعيّ داخل المجتمع.

ثامناً – النّقد الموجّه للنّظريّة التّبادليّة:

أ) استخدم فكر التّبادل الاجتماعيّ في بداية مرحلته الأولى تقييم ظواهر اجتماعيّة درسها في مجتمعات بدائيّة صغيرة ثمّ عمّمها على المجتمع الإنسانيّ بغض النّظر عن مرحلة تطوره الاجتماعيّ، والصّناعيّ، والفكريّ.

ب) فسّر هذا الفكر التّناقض والتّماسك الاجتماعيّ من خلال زاوية المنفعة المتبادلة وأهمل الزّوايا الأخرى كالمشاركة الوجدانيّة، والعقائديّة، والفكريّة، والقوميّة.

ت) أهمل هذا الفكر دراسة عمليّة التّبادل الاجتماعيّ في المجتمعات الزّراعيّة، والتّقليديّة، والاشتراكيّة، والدّينيّة. فهناك عوامل مؤثّرة في هذه المجتمعات تختلف عن العوامل المؤثّرة بالتّبادل الاجتماعيّ في المجتمع الصّناعيّ الّذي درسه هومنز.

ث) لم يفسر هذا الفكر مدّة وشدّة الصّراعات الّتي تحدث أثناء التّبادل الاجتماعيّ.

ج) أهمل الخبرات الاجتماعيّة عند الأفراد المشتركين وأثرها في عمليّة التّبادل.

أعلام النّظريّة التّبادليّة:

أ) بيتر بلاو: Peter Blau (١٩١٨ – ٢٠٠٢ م)

- ولد في فيينا.
- نال درجة الدّكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٠ م في دراسة حول "التّنظيمات الرّسميّة".
- يعدّ من أهم علماء النّظريّة الاجتماعيّة التّبادليّة.
- أصبح بلاو في طليعة المُنظِّرين الاجتماعيّين.
- ترأس الجمعيّة الأمريكيّة لعلم الاجتماع.
- عمل أستاذاً في جامعة كولومبيا منذ العام ١٩٧٩ م.
- حصل على لقب "أستاذ جامعيّ متميّز".
- من أهمّ مؤلفاته:

١- ديناميكيّة البيروقراطيّة ١٩٥٥ م.

٢- التّبادل والقوّة في الحياة الاجتماعيّة ١٩٦٤ م.

٣- البناء المنهجيّ الأميركيّ ١٩٦٨ م.

٤- بناء المنظّمات ١٩٧١ م.

٥- خرافة Fable ١٩٨٠ م.

ب) جورج هومنز : Georg c.homans (١٩١٠ – ١٩٨٩م)

- من أهم المُنظِّرين في مجال التّبادل الاجتماعيّ.
- وضع نموذجاً لنظريته "النّظريّة التّبادليّة الاستنباطيّة" والّتي اعتمدت على العديد من نتائج البحوث الميدانيّة في مجال الجماعات والسّلوك الاجتماعيّ.
- بدأ عمله في علم الاجتماع عام ١٩٣٣م في جامعة هارفارد في قسم إدارة الأعمال.
- اهتم بدراسة المبادلات الاقتصاديّة، وعلاقتها بالتّبادل الاجتماعيّ في المجتمع البدائيّ.
- من أهمّ مؤلفاته:

١- الجماعة الإنسانيّة ١٩٥٠ م.

٢- النّظريّة المعاصرة في السّوسيولوجيا ١٩٦٤ م.

ت) ريتشارد امرسون R.Emerson (١٩٢٦-١٩٨٢م)

- عالم اجتماع أميركيّ معاصر ينتمي إلى الاتّجاه التّبادليّ.
- انضمّ إلى قسم الاجتماع بجامعة واشنطن عام ١٩٦٤ م حتّى وفاته عام ١٩٨٣ م.
- قدّم إضافات هامة إلى النّظرية التّبادليّة أسهمت في تطور النّظريّة الاجتماعيّة التّبادليّة.

أسئلة المحاضرة:

١- تعريف النّظريّة التّبادليّة، والبحث في جذورها ومصادرها المعرفيّة.

٢- البحث في الملامح الأساسيّة للنّظريّة التّبادليّة.

٣- تعريف المفاهيم التّاليّة: (التّكلفة، المكافأة، الكسب، المتتاليّة السّلوكيّة، الذّخيرة السّلوكيّة).

٤- توضيح القضايّا الرّئيسيّة للنّظريّة التّبادليّة.

٥- توضيح طرق البحث في نظريّة التّبادل.

٦- توضيح إسهامات جورج هومنز في النّظريّة التّبادليّة.

٧- توضيح إسهامات بيتر بلاو في النّظريّة التّبادليّة.

٨- توضيح إسهامات ريتشارد امرسون في النّظريّة التّبادليّة.

٩- توضيح الرّؤيّة الانثروبولوجيّة للنّظريّة التّبادليّة ممثلةً بفكر الانثربولوجيّ جيمس فريزر.

١٠- توضيح الرّؤيّة الانثروبولوجيّة للنّظريّة التّبادليّة ممثلةً بفكر الانثروبولوجيّ روبينسيلو مالينوفسكي.

١١- توضيح النّقد الموجّه للنّظريّة التّبادليّة.

المراجع المعتمدة:

- عمر، معن خليل، (١٩٩٧م): "**نظريّات معاصرة في علم الاجتماع**"، منشورات جامعة اليرموك، الأردن.
- الغريب، عبد العزيز بن علي، (د.ت.ن): "**نظريّات علم الاجتماع**"، مكتبة الملك فهد الوطنيّة، الرّياض.

- لطفي، طلعت إبراهيم، الزّيات، كمال عبد الحميد، (١٩٩٩م): "**النّظريّة المعاصرة في علم الاجتماع**"، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة.